المَقصَديّة وتحليل الخِطاب الشّعريّ

أ.د. جواد كاظم إبراهيم
كليّـة الإمـام الكـاظم (ع) للعلـوم الإسـلاميّة الجامعة/قسم اللّغة العربيّة

م.م. حسين سعد جليل
كليّـة الإمـام الكـاظم (ع) للعلـوم الإسـلاميّة الجامعة/قسم اللّغة العربيّة

dr.jawadkadhim@iku.edu.iq iq
hassan- saad@iku.edu

ملخّص:

يُعَـدُّ المقصَـد جُـزءًا مـنَ الخِطَـاب اللّغـويّ، وغايـة رئيسـة مـن غاياتـه؛ لأنّ الأساس في الخطاب يشترك فيه كلٌّ من المُتكلّم والمُتلقّي (المُخَاطَب)، فيَرسِم المُتكلّم مدّته وشكله وكيفيّة إنجازه، ومِن ثمَّ يَستحضِر مَقصَده في كلّ ما يتلفّظ به مِن خِطَاب، فإذا كانَ غَرَض المُتكلِّم توبيخ المُخاطَب مَثلًا، فخِطابه يَكُونُ مُغايرًا لحَالِهِ فِيمَا إذا أرادَ مَدحَه أو الثّناء عَليهِ.

وتحليـل الخطـاب هـو حقـلٌ معرفـيّ يُركّـزُ علـى شـكل الخطـاب ومضـمونه، بوصفه بِنية لسانيّة حاملة لبنية قَصْديّة، ولكلّ من هاتين البنيتين ميزاتها الخاصّة وآليّة اشتغالها، إذ لا يُمكن فصلهما عن بعض، فالنّص رسالة من المُنتج إلى المُتلقّي، والاتّصال بينهما يتمّ عبر النّص مثلما يتمّ التّواصل بين المُتكلّم والسّامع عبر الكلام، فهناك جانبان يكوّنان الخِطاب: ما يُنتجه الكَاتب، وما يقرؤه المُتلقّي.

الكلمات المفتاحيّة: المَقصديّة، الخِطاب، التّحليل، الشّعر.

Abstract:
The intent is considered part of linguistic discourse and a primary goal of its purposes, because the basis of discourse is shared by both the speaker and the recipient (the addressee). The speaker defines its duration, form, and method of completion, and then evokes his intent in every speech he utters. If the speaker's intent is to rebuke the addressee, for example, then his speech will be different from the way it would be if he wanted to praise or commend him. Discourse analysis is a field of knowledge that focuses on the form and content of discourse, as a linguistic structure that carries an intentional structure. Each of these two structures has its own characteristics and operating mechanism, as they cannot be separated from each other. The text is a message from the producer to the recipient, and communication between them takes place through the text, just as communication between the speaker and the listener takes place through speech. There are two aspects that make up the discourse: what the writer produces, and what the recipient reads.
Keywords: intentionality, discourse, analysis, poetry.

تنقسم النّظريّات اللّغويّة بناءً على رؤيتها لوظيفة اللّغة على مجموعتين، الأولى: هي النّظريّات اللّسانيّة البِنيويّة، وتضمّ مجموعة من النّظريّات التي تنظر إلى اللّغة بوصفها أنظمة مجرّدة، أي إنّها تنظر إليها بمعزل عن وظيفتها التّواصليّة، أمّا المجموعة الثّانية (ما بعد البِنيويّة) فتهدف إلى دراسة الاستعمال اللّغوي والقواعد التي تحكمه، وأثر السّياق في التّواصل (الوظائف التّداوليّة في اللّغة العربيّة، صفحة 8)، ولا يتعارض الاتجاه الشّكليّ مع الاتجاه التّواصليّ، بل يُكمل أحدهما الآخر، فالاتجاهان متكاملان في دراسة الظّواهر اللّغويّة، إذ لا يُمكن دراسة الاستعمال اللّغويّ دون معرفة بالنّظام، ولا يمكن أن تبقى دراسة النّظام

اللّغويّ معلّقة في فراغ (آفاق جديدة في البحث اللّغويّ المعاصر، الصفحات 57-58).

أوّلًا: المقصَديّة في اللّغة والاصطلاح:

وردَ مفهوم المقصَديّة مُرادفًا للمعنى، ففي لسان العرب: "لَا يُقَالُ عُنِيتُ بِحَاجَتِكَ إِلا عَلَى مَعْنى قصَدْتُها، مِنْ قَوْلِكَ عَنَيْتُ الشَّيْءَ أَعْنِيه إِذا كُنْتَ قاصِداً لَهُ" (لسان العرب، صفحة 105/15)، والمقصَد والقَصْد لفظان والمُراد منهما واحد، ويَأتيانِ لمعانٍ عدّة منها: القَصْد بمعنى استقامة الطّريقة، وفي المعيشة بعدم الإسراف والإقتار، وبمعنى إتيان الشّيء والتّوجّه، وبمعنى الاعتماد (كتاب العين، صفحة 54/5، وتهذيب اللغة، صفحة 274/8، والصّحاح، صفحة 524/2، وتاج العروس، صفحة 36/9).

ولمْ يكن عُلماء العربيّة بمنأى عن أهميّة القَصْد، فابن جِنّيّ (ت392هـ) عندما حدّ اللّغة بأنّها: "أصوات يُعبّر بها كلّ قوم عَن أغراضهم"(الخصائص، صفحة34/1) مُراده من ذلك حَصْر وظيفة اللّغة الأساسيّة في التّعبير عن المقاصد، فاللّغة ما هي إلّا ألفاظ وأصوات، لكنْ إرادة المُتكلّم (المُنتج) تدفعه للتّعبير عن مقاصده من هذه الألفاظ، فينتقي من هذه الألفاظ ما هو أَنصَع وأَوضَح لمقصَده من سواه، فلا يَلفظُ إلّا بما يُحقّق لهُ مُرادَه، فالحاجة إلى اللّغة تَكمُنُ فِي الإفصاح عن المقاصِد. وقَد قَسّمَ الجِرجَانيّ (ت471هـ) المقاصد على ضَربينِ: ظَاهِرة وخَفيَّة، وأطلق عليها (معنى المَعنى) بقوله: "الكلامُ على ضَرْبين: ضربٌ أنتَ تَصِلُ منه إِلى الغَرضِ بدلالةِ اللفظِ وحدَه... وضربٌ آخرُ أنتَ لا تصِلُ منه إِلى الغرضِ بدلالة اللّفظِ وحدَه، ولكنْ يدلُّكَ اللّفظُ على معناه الذي يَقْتضيه موضوعُهُ في اللغُّة، ثُمَّ تَجدُ لذلك المعنى دَلالةً ثانيةً تَصِلُ بها إلى الغَرَض" (دلائل الإعجاز، صفحة 262/1). ويقول الشّاطبيّ (ت790هـ) في هذا الصّدد: "كِتَابُ سِيبَوَيْهِ يُتَعَلَّمُ مِنْهُ النَّظَرُ وَالتَّفْتِيشُ، وَالْمُرَادُ بِذَلِكَ أَنَّ سِيبَوَيْهِ وَإِنْ تَكَلَّمَ فِي النَّحْوِ، فَقَدْ نَبَّهَ فِي كَلَامِهِ عَلَى مَقَاصِدِ الْعَرَبِ، وَأَنْحَاءِ تَصَرُّفَاتِهَا فِي

أَلْفَاظِهَا وَمَعَانِيهَا، وَلَمْ يَقْتَصِرْ فِيهِ عَلَى بَيَانِ أَنَّ الْفَاعِلَ مَرْفُوعٌ وَالْمَفْعُولَ مَنْصُوبٌ وَنَحْوِ ذَلِكَ" (الموافقات، صفحة 54/5).

وقاعدة (الأمور بمقاصدها) من أهمّ القواعد الفقهيّة التي تشتمل على أكثر أبواب الفقه، وتحدّد الأعمال الصّحيحة والمَقبولة مِن غَيرها، وإنّ النّيّة التي لمْ تَتصِل بإرادة المُتكلّم، ولمْ تَقترِن بفِعلٍ ظَاهريٍّ على اللّسان أو على الجَوارِح لا تَترتّب عليها أحكامٌ شَرعِيّة (الأشباه والنظائر في النّحو، صفحة 8). فممّا سبق يتبيّن أنّ علماء العربيّة كانَ لَهم السَّبق في إدراكِ مَا للقَصْد مِن أهميّة، بوصفِه المُحرّك الأَساس للخِطاب.

والمقصَديّة هي جُزء من العناصر النّصيّة الّتي حدّدها دي بوجراند (De Beaugrand) في سبعة معايير هي: (الاتّساق، والانسجام، والمقصَديّة، والمقبوليّة، والإعلاميّة، والمقاميّة، والتّناص)، والّتي لا بُدَّ من توفّر أغلبها حتى نحكم على نصيّة النّص، فمن هذه المعايير ما يتعلّق ببنية النّص نفسه، وهما معيارا الاتّساق والانسجام، فالاتّساق: هو التّماسك النّحوي (الوحدة الموضوعيّة)، أمّا الإنسجام فهو: التّماسك الدّلاليّ (كالتّماسك بأدوات الرّبط وما أشبهها). ومنها ما يتعلّق بمنتج النّص ومتلقّيه، وهما معيارا المقصديّة والمقبوليّة، فالمَقصَديّة (محلّ البحث) ترتبط بمُنتج النّصّ، والمقبوليّة: تتعلّق بمتلقّي النّص وتحيد موقفه بقبول النّص أو رفضه انطلاقًا من وجود التّماسك فيه أو عدمه. ومنها ما يتعلّق بالظّروف السّياقيّة لإنتاج النّص، وهي معايير الإعلاميّة، والمقاميّة، والتّناص، فالإعلاميّة: يتعلّق هذا الشّرط بمدى إمكانيّة توقّع المعلومات الّتي يقدّمها النّص، أو عدم توقّعها، فإذا خلا النّص من أيّ معلومات لم يكن نصًّا. والمقاميّة: تُعنى برعاية المقام الّذي أُنشئ فيه النّص، ويبدو فيه النّص أكثر تماسكًا. والتّناص: هو علاقة تقوم بين أجزاء النّص، كعلاقة السّؤال والجواب (مدخل إلى علم لغة النّص، الصفحات 11-12، ولسانيّات النّص وتحليل الخطاب، الصفحات 392/1-394، وفَيْضَةُ النَّفْسِ، دراسة نصيّة عربيّة في ضوء

لسانيّات النّصّ، الصفحات 24-25). ويعني معيار المقصَديّة "التّعبير عن الهَدف من إنشاء النّصّ، وإنّ النّصّ يُعبّر عن اعتقاد مؤلفه، وهو وسيلة من وسائل مُتابعة خطّة للوصول إلى غاية بعينها" (لسانيّات النّص وتحليل الخطاب، صفحة 392/1).

إنَّ الدّراسات اللّسانيّة الحَديثة أَولَت اهتِمَامًا واضِحًا بالقَصْد من بابِ عنايتها بالمَعانِي الّتي شَكّلَت أَسَاسًا لتحليلات الفلاسفة، فهذا غرايس (Grice) يَحصر مقاصِد المتكلّم بالتّأثير في المُتلقّي بناءً على ميثاقٍ بينهما، فأعلن مبدأ التّعاون، وهو الّذي يُحدِّد الطّريقة الّتي اُستعمل فيها اللّغة بأعلى قَدْر من الكفاية والفاعليّة، ويُتوقّع من المُشاركين أن يتعاونوا بعضهم مع بعضهم الآخر في عمليّة التّواصل، وقواعده الأربع هي: الكمّ، والكيف، والعلاقة، والأسلوب (مُعجم أكسفورد للتّداوليّة، الصفحات 196-197)، من أجل نجاح عمليّة التّفاعل بين طرفيّ الخِطَاب، فتحدّث عن القصْديّة عند دراسته المعنى من خلال محاضراته الشّهيرة (محاضرات وليم جيمس) الّتي ألقاها بهارفارد سنة 1968م (التّداوليّة اليوم علم جديد في التّواصل، صفحة 245)، ووَصَفَ المعنى على وفق معايير مقاصد المتكلّم، الأمر الّذي جعله يقسّم المعنى على قسمَينِ: أحدهما: المعنى الطّبيعيّ (Natural)، والآخر: المعنى غير الطّبيعيّ (Nonnatural). فالمعنى الطّبيعيّ: هو المعنى غَير المُرتبط بالقَصْد، ويعتمد على علاقة السّببيّة بين شيء وآخر، مثلًا: (هذهِ البُقع تعني الحَصبة)، فوجود البُقَع عَلامَة عَلى وُجود الحَصْبَة، وكدلالة الدّخان على النّار (نظريّة المعنى في فلسفة بول جرايس، صفحة 40، والاستلزام الحواريّ نحو مقاربة تداوليّة معرفيّة للخطاب القرآنيّ، صفحة 30)، أمّا المعنى غير الطّبيعيّ فهو المرتبط بالقصد، وعرّفه غرايس (Grice) بـ"أن نقول إنّ القائل قصد شيئًا ما من خلال جملة معينة، فذلك يعني أنّ هذا القائل كان ينوي وهو يتلفّظ بهذه الجملة إيقاع التّأثير في مخاطبه بفضل فهم هذا المخاطب لنيّته" (التّداولية اليوم علم جديد في التّواصل، صفحة 53)، من مثل: (أيمكنكَ أن تمدّ لي الملْح؟)، فالمُتكلّم لا يريد إشغال المُخاطب بقدرته على مدّه بالملح، بل

يطلب منه المِلْح (القاموس الموسوعيّ للتّداوليّة، صفحة 26). واشتهر غرايس (Grice) بنظريّته القَصْديّة الّتي توضّح الجانب الاتّصاليّ في المعنى غير الطّبيعيّ، وهذه النّظرية قائمة على مَقاصِد المُتكلّمين فِي تأْسِيس الدّلالة اللّغويّة، وتتّخذ الصّورة الآتية: إنَّ قولَ القائلِ لا يُفيدُ شَيئًا إلّا إذا قَصَدَ أمورًا ثلاث، هيَ: أنْ يدفعَ قوله لحصول استجَابة عندَ المُتلقّي، والثّاني: أنْ يكونَ المُتلقّي على معرفة بهذا القصْد، والأخير: إنّ انتهاض المتلقّي يكونُ بالجواب المستند إلى المعرفة بقصْد المُتكلّم (في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، صفحة 45).

ويُعدّ جون سيرل (John Searle) من أبرز الفلاسفة اشتغالًا بالمقصديّة، إذ أضاف لها بُعدًا تداوليًّا، وآراؤه خالفت التّقاليد الفلسفيّة السّابقة، وقسّم المقصديّة على لُغويّة وغير لُغويّة، فالّتي تُبيّن الأحاسيس والمشاعر كبكاء الطّفل عند الجوع، أو بعض سلوكيّات الحيوانات الّتي تدلّ على حالات معيّنة ما هي إلّا مقصديّة غير لغويّة تُسْتَمَد منَ العَقل، أمّا المقصَديّة اللُّغويّة فهي الّتي تُحدّد أشكالَ ومعانيَ الأفعال الكَلاميّة.

تتّخذ نظريّتا (غرايس وسيرل) الذّات منطلقًا لعمليّة التّواصل، فإذا كان غرايس يحصر مقاصد المُتكلّم بتأثيره في المُتلقّي بناءً على ميثاق بينهما، فإنّ سيرل وسّع النّظريّة لتشتمل على كثير من الظّواهر الإنسانيّة واللّغويّة.

فالمقصديّة إذن هي الغاية الّتي توجّه عملية التّواصل اللّغويّ، وينطلق المُتكلّم منها في إيصال ما يسعى تحقيقه عند المُتلقّي، ويستعمل المُتكلّم النّص خدمة لغرضه، فيقوم بانتقاء الكلمات والأساليب المؤثّرة في عمليّة التّواصل. وتساعد المقصَديّة المُتلقّي في فهم النّص وتفسيره، فيتعرّف على الغرض من الكلام، ويفهم المعنى الّذي أراده منتج النّص بشكل أعمق. وسبب اختيار مصطلح (المَقصَديَّة) في وصف وتحليل كلام شعراء أهل البَيت (عليهم السّلام)؛ لأنّ (المَقصَديَّة) أقرب للمصطلح اللّسَانيّ، ويعني نشاطًا يتعلّق بمنتج الخطاب، وتوجّهه الواعي نحوَ الهَدف المَقصُود، فهو مصدر ميميّ على زنة (مَفْعَل)، وهو

أفضل من النّاحية الصّرفيّة وأكثر توفيقًا من مُصطلح (القصْديَّة) الّذي هو أقرب للاستعمال الإنشائيّ اليوميّ.

ثانيًا: أنواع المقصديّة:

قسّم سيرل (Searle) المقصديّة اللغويّة على دلاليّة ولفظيّة، فـ"القصْديّة الدّلاليّة... هي تلك الصّفة في العقل التي تُمكّنه من التوجّه نحو أو حول الأشياء، أو الحالات الواقعيّة في العالم باستقلال عنها، والقصْديّة المدلوليّة مُعاكسة لمدلوليّة اللّفظ (extcntionality) إنّها صفة تخصّ جُملًا وقضايا وموجودات لغويّة أُخرى غير مُعيّنة" (العقل مدخل موجز، صفحة 142)، وهذا يعني أنّ المقصَديّة الدلاليّة تخصّ المعنى الّذي يقصده المتكلّم، أي المعنى غير الحرفيّ، والمقصديّة اللفظيّة تخصّ معنى الكلمة أو الجملة، أي المحتوى القضويّ للعبارات.

إنّ العمليّة التواصليّة تعتمد على ثلاثة عناصر: مؤلّف، ونصّ، وقارئ؛ لغرض الوصول إلى المعاني المحتملة. ولا تحصل الفائدة إلّا بوجود تفاعل حواريّ متواصل بين عناصر الخطاب. وأنواع المقصَديّة على النّحو الآتي:

1- مقصديّة المُنتج؛ (المُؤلّف):

إنّ نظريّة التخاطب تُعنى بتحليل النصّ وفق مُراد المنتج ومقصده، والّتي تُمكّنه من إيصال مراده إلى المُتلقّي فـ"بصفة عامّة إنّ لصاحب خطاب ما -إلى جانب مقاصده التواصليّة الموضعيّة من كلّ قول ينتجه- مقصدًا تواصليًّا إجماليًّا يتعلّق بمجموع خطابه" (التّداوليّة اليوم علم جديد في التّواصل، صفحة 206)، وبما يقتضيه الموقف النّصيّ والنّظام اللّغوي، فنظريّة التّخاطب أشبه بالصّورة التي تقود المتلقّي للكشف عن أبعاد النّص، فيقوم بالبحث عن أهمّ الاحتمالات والافتراضات التي يُمكن تأويلها. ويعبّر المُنتج عن قصده في الخطاب بواسطة اللّغة، لأنَّ اللّغة "تحيل عليه لتحديد معنى الخطاب، ولهذا يحتج صاحب المعنى على أنّ القصْد شرط في بلوغ الكلام تمامه، معتمدًا على ملاحظة أنّ الكلام في

الشّاهد يكون أمارة لما يريده المتكلّم بحيث يكون دليلًا على مقصود المتكلّم وعلى أنّ المتكلّم أراد أن يبلّغ مراده بمقصوده" (استراتيجيّات الخطاب مقاربة لغويّة تداوليّة، صفحة 182). واللّغة وعاء لمقصد المتكلّم، فهو يعتمد عليها في إيصال مراده للمتلقّي، ويشترط فيه أن يكون متمكّنًا منها بمستوياتها الصّوتيّة والصرفيّة والنحويّة والدلاليّة وسياقات استعمالها، فالمؤلّف لا يكتُب نصّه وفق منزلقات هشّة، بل ينسجه وفق معطيات دلاليّة تمنح النّص ثراءه وتكسبه معاني جديدة، وتُعدّ تلك المعاني الخطوة الأولى إلى التأويل الّذي يقف على حقائق النّص ومقاصده الخفيّة، وممّا لا شكّ فيه إنّ المقاصد على مستوياتٍ مختلفة، والهدف منها مساعدة المتلقّي بتوجيهه لفهم دلالات النّص، فالنّص يتّخذ أبعادًا لا حصر لمقاصده فيها، فبات من الضروري -إذن- خلق عمليّة استراتيجيّة تُسهم في تفعيل مسار الرؤية النّصيّة.

2- مقصديّة النّص:

النّصّ عبارة عن "تعالقات قصديّة بين الجمل، فما دامت الجمل والمقاطع النّصيّة مترابطة فيما بينها داخل نسيج نصيّ، فإنّها مترابطة قصديًّا ودلاليًّا أيضًا" (من فلسفات التّأويل إلى نظريّات القراءة، صفحة 159)، فهناك علاقة وثيقة بين النسيج والعناصر النصيّة بالقصْد، فالنّص يحمل دلالات مختلفة ترجع إمّا إلى مدلول داخليّ في النّص، وإمّا إلى خارج النّص، وحمولة النّص اللّغويّة تعكس ثقافة إنتاج النّص وبيئته وعصره، فالمقصديّة -هنا- توجّه القارئ في التفاعل مع مضمون النّص، وهو ما ركّز عليه فان دايك (Van Dijk) بتوضيحه أنّ النّص يحتوي على شفرات ثقافيّة واجتماعيّة تُحدّد نوع القارئ، فالنّص يكشف عن نوع القارئ الّذي سيتفاعل معه (النّص والسّياق، صفحة 304).

فمقصديّة النّص تتحكّم بكلّ فعل لغويّ، وتحاول أن تكشف معناه الظّاهر والمضمر؛ كون النّص يحتاج إلى ذاكرة جديدة من أجل الحفاظ على تكثيفه.

3- المقصديّة والقارئ:

يوجد ارتباط فيما بين مقصديّة النّص ومقصديّة القارئ، فالثّاني مرتبط بالأوّل ومتعلّق به، فالنّص قد يأتي غامضًا من شأنه إعاقة مقصديّة القارئ وأُفق توقعه، فنجد أنّ القارئ يَدخل النّص مُستعدًا عقليًّا ونَسَقيًّا، وهذا الاستعداد يساعده على تذوّق النّص، وتتمثّل قدرة القارئ في الثقافة والمُكتسبات بما يمكّنه مِن الكشف عن كوامن النّص، فمقصديّة القارئ تبحث عن طريقة لمعالجة النّص، لأنَّ النّصَّ رمزٌ لمنظومة ثقافيّة، والمُنتج والقارِئ النّاقد هُما مَن يَمرّان عبر الأسطر بُغية الوصول إلى المقصد الحقيقيّ للنّص (مرجعيات القراءة والتأويل عند ناصر حامد أبو زيد، صفحة 25)، فنجاح تفاعل القارئ مع النّص متوقف بقدرته على القيام بفعل تامّ المراحل فهمًا وشرحًا وتفسيرًا.

ثالثًا: أهميّة المقاصد في الخطاب:

تتمثّل أهمية المقاصد في العلوم التي تتعلّق بلغة الخطاب قديمًا وحديثًا، انطلاقًا مِنْ أنّ المقاصدَ هي لبّ العمليّة التواصليّة؛ لأنّه "لا وجود لأيّ تواصل عن طريق العلامات دون وجود قصديّة وراء فعل التواصل، ودون وجود إبداع أو على الأقل دون وجود توليف للعلامات" (التّحليل السّيميوطيقيّ للنّصّ الشّعريّ، صفحة 25)، ولأنّها كذلك فإنّ سيرل (Searle) يرى أنّ المقاصد ذات تكوين بيولوجي، ولها أطر معينة في ذهن المنتج، ففلسفة اللّغة عنده تعدّ فرعًا من فلسفة العقل، وغاية قصد المنتج هي إفهام المتلقّي، ويشترط ليعبّر المنتج عن القصد الذي يوصل إليه: أن يمتلك اللّغة في مستوياتها المعروفة ومن أهمّها المستوى الدلالي؛ وذلك بمعرفته بالعلاقة بين الدّوال والمدلولات، وبمعرفته بقواعد التركيب وسياقات الاستعمال، وبالمجمل معرفته بالبنيات المشتركة التي تنظّم إنتاج الخطاب، والقصد لا يقف عند إيجاد العلاقة الدّلاليّة في العلامة اللّغويّة بين الدّال والمدلول؛ بل يمتدّ إلى استعمالها في الخطاب لاحقًا (التّحليل السّيميوطيقيّ للنّص الشّعريّ، صفحة 25).

وعادة ما يشير الناس في تخاطبهم السّؤال: ماذا يعني كلامك؟ وماذا تقصد بخطابك؟ وتجنبًا للسّؤال هذا يعمد طرفا الخطاب إلى تحديد المقاصد من الألفاظ والعبارات والمفاهيم مسبقًا، وكذلك في النّقاشات لكي ينطلقوا من قاعدة واحدة تكون مرجعًا لهم عند الاختلاف.

وقد ميّز الباحثون بين العلامات ذات الدّلالة الطبيعيّة والعلامات ذات الدّلالة غير الطّبيعيّة (المقصودة)، فالعلامات ذات المعنى الطبيعيّ على الرّغم من أنّها تحمل معنى، إلّا أنّ القصد لا يتدخل في تحديدها، مثل علامة الدّخان الدّالّة على وجود النّار، وهذا النوّع من العلامات هو اصطلاح السّيميائيين بالمؤشّر (Index)، وهناك نوع من العلامات لا يتحدد معناها إلا من قصد المنتج، مثل الرّمز (symbol)، لذا يذهب أنصار سيمياء التواصل كبويسنس (Buysens)، وبريتو (Britto)، ومونان (Mounin)، وغرايس (Grice)، وأوستن (Austin)، وفنجنشتاين (Wittgenstein)، ومارتينيه (Martinet) إلى أنّ العلامة تتكوّن من وحدة ثلاثيّة المبنى: الدّال، والمدلول، والقصد (معرفة الآخر مدخل إلى المناهج النّقديّة الحديثة، صفحة 84).

والخطاب اللّغويّ ما هو إلّا علامة تنطوي عليها مقاصد المتكلّم، وهذا ما يجعل معنى الخطاب يتعدد بتعدد السياقات التي ينتج فيها، فمن هنا تتضح ضرورة ارتباط القصد بالعلامة عند الاستعمال -أيًّا كان نوع العلامة- لينجح المنتج (المرسل) في خطابه، ويتدخّل القصد بوصفه معيارًا في صلب تصنيف العلامة، فيقوم بنقلها من صنف إلى آخر، كما ينقلها من حيّز الخلو من المعنى إلى أن تصبح ذات معنى، وعليه فإنّه يمكن تصنيف الأمارات من حيث دلالتها إلى ثلاثة أصناف: "الأمارات العفويّة، والأمارات العفويّة المغلوطة، والأمارات القصديّة: ويتعلق الأمر بالوقائع التي توفّر إشارات أنتجت قصدًا لتوفيرها، وهي إشارات لا تبلغ هذا الهدف إلّا شريطة الاعتراف بها بوصفها أُنتجت لِتَبْلُغَ ذلك الهدف. مثال: علامات المرور. وتسمّى الأمارة القصديّة علامة. هكذا يبدو أنّ

هنـاك اشـتراطًا للقصـديّة التواصـليّة الواعيـة حتـى صـار الـدّليل أداة القصـديّة التواصليّة. وإذا أخذنا بعين الاعتبار كلّ ما سبق، فإنّ موضوع السيميولوجيا هو الـدّلائل القائمـة على القصـديّة التواصـليّة" (دروس في السّـيميائيّات، الصـفحات 73-74).

والاسـتراتيجيّة التـي يسـتعملها المُنـتج (المرسـل) فـي الخطـاب هـي وسـيلة تتجسّد باللّغة لتحقيق المقاصد؛ لأنّ الوسيلة إلى أفضـل المقاصـد هـي مـن أفضـل الوسائل(مقاصـد الشّـريعة الإسـلاميّة، صـفحة 145)، وللقصـد أثـره فـي تقنـين مسارات الحجاج والنقاش، شرط أن يكون المتلقّي قد فهم ما يعنيه المنتج؛ ذلك أنّ الكلام على ما لم يقصده المنتج يعدّ عدولًا عن الغرض المطلوب.

رابعًا: المَقصديّة وتحليل الخطاب:

مُصـطلح (الخطـاب) ترجمـة أو تقريـب للمُصـطلح (discourse) فـي الإنجليزيّة، و(diskous) في الألمانيّة، إنّ "مُصطلح خطاب من حيث معناه العام المتداول في تحليل الخطابات، يحيل على نوع من التّناول للّغة، أكثر مما يحيل على حقل بحثيّ محدّد، فاللّغة في الخطاب لا تُعدّ بنية اعتباطية بل نشاطًا لأفراد مندرجين في سياقات معيّنة، والخطاب، بهذا المعنى، لا يحتمل صيغة الجمع: يُقال (الخطاب) و(مجال الخطاب) إلخ، وبما أنه يفترض تمفصل اللّغة مع معايير غيـر لغويّـة، فـإنّ الخطـاب لا يمكـن أن يكـون موضـوع تنـاول لسـانيّ صِـرف" (المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، صفحة 38)، فالخطاب نشاط للّغة يَنشأُ بشكل مقصود بعيدًا عـن الاعتباطيّة، فكلّ خطاب يُعدُّ نشاطًا خاصًّا تتقاطع فيه اللّغة مع مكوّنات خارج لغويّة كالإيماءات، والتّعابير الوجهيّة، وما إلى ذلك.

إنّ الفرق الّذي يُمكن الاعتداد به يكمن أساسًا في زمنيّة التّلقي، وما يُمكن أن تؤثر به في تكوين القصد، أو ردّة فعل معينة تتلاشى مع الزمن، كأنْ تصل رسـالة دعـوة -مـثلًا- بعـد التّـاريخ المـذكور للحضـور المفتـرض، وبهـذا يكـون الخطاب المكتوب أبطأ في استدعاء عقل المتلقّي، ومع ذلك يبقى يحتفظ بقيمته،

وهكذا نجد أنّ اللسانيّات الوظيفيّة اتخذت الخطاب موضوعًا للدّرس، سواء أكان الخطاب مفردة واحدة، أو مركبًا اسميًّا، أو جُملة، أو نصًّا كاملًا، وبتعبيرٍ آخرٍ فقد أصبح موضوع المقاربة اللسانيّة يقاس "لا بالتقسيمات التركيبيّة التقليديّة، بل بكلّ ما يُمكن أن يشكّل وحدة تواصليّة في موقف تواصليّ معيّن" (التّركيبات الوظيفيّة قضايا ومقاربات، صفحة 58)، فالوحدة التّواصلية من أهم صفات الخطاب، فمثلًا الرّسالة والبرقيّة تشكّل خطابات ناجحة عند وصولها للمتلقّي وأبدى تفاعله معها ومع مضمونها.

ويزيد بول ريكور (PaulRicaur) على هذا المعنى أن النص الّذي هو الكلام المكتوب يتميز بالامتداد، قال: "لكن ما الخطاب؟ لن نطلب الجواب من المناطقة، ولا حتى من المدافعين عن التحليل اللسانيّ؛ بل من علماء اللغة. الخطاب هو الرأي المخالف لما يسميّه هؤلاء بالنّسق أو النظام اللسانيّ. الخطاب يعني حدث الكلام" (من النّص إلى الفعل "أبحاث التأويل"، صفحة 141)، فهو بهذا يفرد بأنّ الخطاب بعيد عن مجرّد كونه نسقا لسانيّا وتتابعا خطيّا، ثم يردف ريكور في إرساء سمات الخطاب التي يتميز بها، وفي هذه السمات يضمن أهم منطلقات الخطاب سواء أكان شكله شفهيّا، أو كان شكل الخطاب كتابيّا، و"السّمات هي:

1- إنّ الخطاب يحقق دومًا زمنيًّا وفي الحاضر، بينما نظام اللغة تقديريّ وغريب عن الزمن.

2- في الوقت الذي لا تتطلب فيه اللّغة أيّ ذاتٍ بذلك المعنى الذي لا ينطبق فيه سؤال: من يتكلم؟ على هذا المستوى، يحيل الخطاب على متكلّمه بفضل مجموعة من أدوات الوصل كالضّمائر مثلًا، لذا نقول إنّ إلحاح الخطاب مرجعيّ ذاتيّ.

3- تحيل علامات اللّغة على علامات أخرى داخل النظام نفسه، وبينما تستغني اللّغة عن العالم كما تستغني عن الزمنيّة والذاتيّة، يكون الخطاب دائمًا

على صلة بموضوع ما يحيل على عالم يتوخى وصفه، والتّعبير عنه وتشخيصه، لهذا لا تتحقق وظيفة الكلام الرمزيّة إلّا في الخطاب.

4- لا تعتبر اللّغة سوى شرط للتواصل الذي تقدم له أنساقًا ما، فلا يتمّ تبادل الإرساليّات إلّا في الخطاب، وبهذا المعنى لا يملك الخطاب وحده عالمًا فقط، بل آخر مخاطب.

هذه السّمات الأربع مجتمعة تجعل من الخطاب حدثًا" (من النّص إلى الفعل، صفحة 142) وهي التي تعطيه هويّته وحركيّته، وتضمن له التّجدّد والتّنوع، وتعمل على تعدّد أشكاله من حيث أنّه مستوى نَسقيّ، أو نظام لغويّ ينتمي إلى خلفيّة معرفية للغة معيّنة، ف- "ثمّة كلمات في اللّغات تنظّم الجمل بين بعضها البعض، من ضمنها الروابط (connecteurs) المنطقية (لأنّ، وبالفعل، وإذن، ولكنّ)، وضمائر التردّد التوكيدي (pronons anaphoniqes) (ضمير الغائب، والضمائر التي تعوّض عن المكان). لعلّ ذلك ما يؤدي إلى اشتغال الخطاب اللّغويّ الذي يتجاوز بمرونة فائقة حدود الجملة" (سوسيولوجيا اللّغة، صفحة 21)، فالخطاب يتحقّق متى ما ارتبط بذات محدّدة يحيل عليها، وعالم حقيقيّ الوجود حول أقطاب الخطاب، وذات تتفاعل معه عند استقبالها له، سواء أكان هذا الاستقبال في حال الخطاب الشفوي، أو حال الخطاب المكتوب، وتتوافر لكلّ فرد -إلى جانب معرفته بلغة معينة- مجموعة بنيات ثقافيّة للوجود الّذي من حوله، والمعارف اللّغويّة، حتى يتسنّى له التواصل مع العالم المحيط به.

والتّواصل نحو اللّغة من المعجم إلى التّداول -ضمن فعاليّة السّياق- هو ما يعرف بأفعال اللّغة، فاللّفظ هو كلّ جزء من أجزاء الخطاب ينجزه المتكلم، بحيث يكون هناك وقف قبل هذا الجزء وبعده، وهو ينطبق على اللّغة المنطوقة والمكتوبة، وهو يسمح بتناول دلالي أوسع، وتزايد تداولي للخبر تفعله اللّغة؛ لأنها أداة التّحول، وذخيرة هذا التحول والتفاعل، فما يتمّ التبادل به ليس اللّغة، بل الخطاب الذي يستلهم المعنى من الخارج، ومن ثمّ يكتسب من الخطاب قيمة رمزيّة، وهكذا يبنى التواصل بين المخاطبين على أساس مبدأ الحوار وتعدّد

الأصوات (استراتيجيات الخطاب مقاربة لغويّة تداوليّة، صفحة 25)، ويرتكز أثر المقاصد على المعنى، فيستلزم من المنتج مراعاة كيفية التعبير عن قصده، وتكمن وظيفة اللّغة -هنا- في تحقيق التفاعل بين طرفي الخطاب بما يناسب السّياق.

وترتبط المقصديّة بالخطاب الشعريّ في صورة تتجاوز إطار الثنائية (مرسل ومرسل إليه)، فهي إحدى المقومّات التي تُسهم في توجيه أطراف العمليّة التواصليّة، وتُسهم في التحكّم في الإطار العام الّذي تتحرّك فيه مختلف العناصر الفعّالة والمشكّلة للخطاب، ممّا جعلها تكتسب بُعدًا تداوليًّا لتفيد في توجيه الخطاب وتوجيه المُخاطَب، وتُسهم في إنشاء علاقة متواصلة بين العناصر اللّغويّة وغير اللّغويّة.

وتتّصف العلاقات في الخطاب أو استراتيجيات التخاطب بأنّها الطّرائق التي توضّح مقاصد المنتج وكفايته التداوليّة، بصورة تُساهم في فاعليّة إنتاج الخطاب وفقَ شروط داخليّة وخارجيّة، تفتح مجال التّوافق مع السّياق -مهما كان نوعه عامًّا أو خاصًّا-، فالإحاطة بالقصد متوقفة على معرفة السّياق اللّغويّ المتعلّق بمنتج الخطاب، وبمؤشرات داخليّة وأخرى خارجيّة تتعلّق بالخطاب، وترتبط بالإطار اللسانيّ والتداوليّ، ممّا يجمع بين عناصر التخاطب المتحكّمة في حركيّة المقاصد من جهة، وفي سيرورة الخطاب من جهة أخرى (استراتيجيات الخطاب مقاربة لغويّة تداوليّة، صفحة 96).

فمن ذلك ما ورد من هاشميّات الكُميت بن زيد الأسديّ (ت126هـ) في مدح بني هاشم، قال: (ديوان الكميت بن زيد الأسديّ، الصفحات 491-492)

رَاجِحِي الوَزنِ كَامِلِي العَدلِ في ... السِيرةِ طَيِّبِين بالأُمورِ الجِشَامِ
فَضّلُوا النَّاسَ في الحَدِيثِ حَدِيثًا ... وَقَدِيمًا في أوّلِ القُدَّامِ
مُستَفِيدِينَ مُثْلِفِينَ مَوَاهِبَ ... مَطَاعِيمَ غَيْرِ ما أبرَامِ
مُسْتَعِفِّينَ مُفْضِلِينَ مَسَامِيـ ... ـحَ مراجِيحَ في الخَمِيسِ اللُّهَامِ
ومَدَارِيكَ لِلذُّحُولِ مَتَارِيْـ ... ـكَ وإن أُحفِظُوا لعُورِ الكَلاَمِ

ففي هذه الأبيات أنجز الشّاعر فعل الإخبار عن طريق المقصد، وهنا ينجلي فيما أراده الشّاعر من حمل للمتلقّي على معرفة معيّنة، وهذه المعرفة قد يكون المتلقّي على علم بها، ولكن أتى بها الشّاعر تذكيرًا وتنبيهًا، ولمن يجهل بها تعريفًا وتبصيرًا، فمقصد الكميت بيان فضائل أهل البيت (عليهم السّلام) وصفاتهم بوساطة عدّة أفعال كلاميّة إخباريّة، تعكسها الطّبيعة التّقريريّة الوصفيّة للغةِ الهاشميّات من قبيل (راجحي الوزن، كاملي العدل، مواهيب، مطاعيم...الخ)، فهذه الصّفات نلحظ فيها شرط الصّدق الّذي يبدو جليًّا في الأبيات، وهو ما يرجع إلى مصداقيّة الشّاعر عندما يتحدّث عن فكرة معيّنة، إذن مقصد الكميت هو الإخبار عن الصّفات الكامنة في أهل البيت (عليهم السّلام) والّتي كانت موضع إفتخار عنده، وكذلك أصبحت موضع إعلام ووصف.

إنَّ ارتباط المقصديّة بالخطاب الشعريّ وعلى مستويات متداخلة خاضعة لسلطة اللّغة، يدفع بالقصد إلى اعتماد وظائف إثباتيّة تتعلق بالبنية اللّغويّة، ومدى فهم عناصرها، وذلك بربط مكونات البنية بمنتج النّص ومتلقيّه وقرائن الاستعمال، وذلك وفق نموذج تفاعليّ وتواصليّ يرصد تحوّلات الخطاب الشعريّ وسلوكه اللّغويّ وقواعده البنيوية، ويخضعها لمتطلبات دلاليّة تُنير ما يحتويه من رؤى وإشارات ومرجعيّات ضامنةً إنتاج المقاصد، تعمل على إعادة توزيعها لتضمن وجود استراتيجيّة مفاهيميّة تحكمها منظومة علاقات تكفل توجيه الخطاب الشّعريّ، وفق معايير يحددها الأطراف الفاعلة فيه (النّحو القرآني في ضوء لسانيّات النّص، صفحة 290).

الخاتمة:

يتّضح من خلال البحث أنّ المقصديّة تُشير إلى المعنى المُضمر الكامن وراء النّص، فهي هدف منتج النّص غير المُعلن، الذي يسعى إلى إيجاد عالمه الخاصّ في سياق لغويّ معرفيّ يُحكم عليه برؤية شموليّة تتعلّق بداخل النص وبثوابته، وبالمجريات غير الواعية التي تأتي من خارج النّص لتُسهم في توجيه الدّلالات

وتحديدها بنحوٍ سليم؛ لكي تجمع المقصديّة على هذا النّحو بين المتناقضات داخلًا وخارجًا، وبين الوعي واللاوعي، وبين البسيط والمركب.

المصادر والمراجع:

• استراتيجيّات الخطاب مقاربة لغويّة تداوليّة: عبد الهاديّ بن ظافر الشّهريّ، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت - لبنان، ط1، 2004م.

• الاستلزام الحواريّ نحو مقاربة تداوليّة معرفيّة للخطاب القرآنيّ: جنان سالم البلداويّ، دار قناديل، بغداد - العراق، ط1، 2021م.

• آفاق جديدة في البحث اللّغويّ المعاصر: محمود أحمد نحلة، دار المعرفة الجامعيّة، مصر، ط1، 2002م.

• تاج العروس من جواهر القاموس: محمّد مرتضى الحسينيّ الزَّبيديّ (ت1205هـ)، تح: مجموعة من المحقّقين، التّراث العربيّ، مطبعة حكومة الكويت، د. ط، بتواريخ مختلفة.

• التّحليل السّيميوطيقيّ للنّص الشّعريّ: جيرار دولودال، ترجمة: عبد الرّحمن بوعلي، مطبعة المعارف، ط1، 1994م.

• التّداوليّة اليوم علم جديد في التواصل: آن روبول، وجاك موشلار، ترجمة: سيف الدّين دغبوس، ومحمّد الشّيبانيّ، مراجعة: لطيف زيتوني، المنظّمة العربيّة للترجمة، بيروت - لبنان، ط1، 2003م.

• تهذيب اللّغة: أبو منصور محمّد بن أحمد الهرويّ الأزهريّ (ت370هـ)، تح: محمّد عوض مرعب، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت - لبنان، ط1، 2001م.

• الخصائص: أبو الفتح عثمان بن جنيّ الموصليّ (ت392هـ)، تح: محمّد عليّ النّجّار، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ط4، د. ت.

• دروس في السّيميائيّات: مبارك حنون، دار توبقال للنشر، الدّار البيضاء - المغرب، ط1، 1987م.

• دلائل الإعجاز في علم المعاني: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمّد الجرجانيّ (ت471هـ)، تح: محمود محمّد شاكر أبو فهر، مطبعة المدنيّ بالقاهرة - دار المدني بجدة، ط3، 1413هـ - 1992م.

• ديوان الكُميت بن زيد الأسديّ: جمع وشرح وتحقيق: محمّد نبيل طريفي، دار صادر، بيروت، ط1، 2000م.

• سوسيولوجيا اللّغة: بيار أشار، تعريب: عبد الوهاب تزو، منشورات عويدات، بيروت - لبنان، ط1، 1996م.

• الصّحاح - تاج اللّغة وصحاح العربيّة: أبو نصر إسماعيل بن حمّاد الجوهريّ (ت398هـ)، تح: أحمد عبد الغفور عطّار، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، ط4، 1987م.

• العقل مدخل موجز: جون سيرل، ترجمة: ميشيل متياس، عالم المعرفة، الكويت، ط1، 2007م.

• فَيْضَةُ النّفس، دراسة نصيّة عربيّة في ضوء لسانيّات النّصّ: كريم حسين ناصح الخالدي، دار الرّضوان، عمّان - الأردن، ط1، 1439هـ - 2018م.

• القاموس الموسوعيّ للتّداوليّة: آن روبول، وجاك موشلار، ترجمة: مجموعة من الأساتذة والباحثين بإشراف: عزّ الدّين المجدوب، مراجعة: خالد ميلاد، دار سيناترا، المركز الوطنيّ للتّرجمة، تونس، ط2، 2010م.

• كتاب العين: أبو عبد الرَّحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيديّ (ت175هـ)، تح: د. مهديّ المخزوميّ ود. إبراهيم السّامرّائيّ، دار ومكتبة الهلال، بيروت، د. ط، د. ت.

• لسان العرب: أبو الفضل جمال الدّين محمّد بن مكرم المعروف بابن منظور الإفريقيّ المصريّ (ت711هـ)، دار صادر، بيروت - لبنان، ط3، 1414هـ - 1994م.

• لسانيّات النّص وتحليل الخطاب: محمّد عبد الرحمن خطابي وآخرون، دار كنوز المعرفة، عمّان - الأردن، ط1، 1434هـ - 2013م.

• مدخل إلى علم لغة النّص: دي بوجراند، ودريسلر، ترجمة: الهام أبو غزالة، وعلي خليل حمد، دار الكاتب، نابلس، ط1، 1413هـ - 1992م.

• مرجعيّات القراءة والتّأويل عند ناصر حامد أبو زيد: اليامين بن تومي، منشورات الاختلاف، دار الأمان، الرباط، ط1، 2011م.

• المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب: دومينيك مانغونو، ترجمة: محمّد يحياتن، منشورات الاختلاف، الجزائر، بيروت - لبنان، ط1، 1428هـ 2008م.

• معجم أكسفورد للتّداولية: يان هوانغ، ترجمة هشام إبراهيم عبد الله الخليفة، دار الكتاب الجديد المتّحدة، بيروت - لبنان، ط1، 2020م.

• معرفة الآخر (مدخل إلى المناهج النّقديّة الحديثة): عبد الله إبراهيم، وسعيد الغانميّ، وعوّاد عليّ، المركز الثقافيّ العربيّ، الدّار البيضاء - المغرب، ط2، 1996م.

• مقاصد الشّريعة الإسلاميّة: محمّد الطّاهر بن عاشور، الشّركة التّونسيّة للتّوزيع، تونس، د. ط، 1978م.

• من النّص إلى الفعل (أبحاث التأويل): بول ريكور، ترجمة: محمّد برادة، وحسّان بورقية، عين للدّراسات والبحوث الإنسانيّة والاجتماعيّة، القاهرة - مصر، ط1، 2001م.

• من فلسفات التأويل إلى نظريّات القراءة: عبد الكريم شرفي، منشورات الاختلاف، الجزائر، د.ط، 2007م.

• الموافقات: إبراهيم بن موسى بن محمّد اللّخميّ الغرناطيّ الشّهير بالشّاطبيّ (ت790هـ)، تقديم: بكر بن عبد الله أبو زيد، تح: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفّان، المملكة العربيّة السّعوديّة، ط1، 1417هـ - 1997م.

• النّحو القرآني في ضوء لسانيّات النّص: هناء محمود إسماعيل، دار الكتب العلميّة، بيروت - لبنان، ط1، 2012م.

• النّص والسّياق استقصاء البحث في الخطاب الدّلاليّ والتّداوليّ: فان دايك، ترجمة: عبد القادر قنيني، افريقيا الشرق، الدّار البيضاء - المغرب، 2000م.

• نظريّة المعنى في فلسفة بول جرايس: صلاح إسماعيل، دار قباء الحديثة، القاهرة، د. ط، 2007م.

• الوظائف التّداوليّة في اللّغة العربيّة: أحمد المتوكّل، دار الثّقافة للنّشر والتّوزيع، الدار البيضاء- المغرب، ط1، 1405هـ.